عودة إلى تحية الأستاذ علي طه

أرواح وأشـــباح

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ٢ —

فرض الشاعر بمخيلته القادرة أن الأرواح المجردة تتكلم ، في السماء ، عن البشر وغريزتهم في الأرض . وهذا يعتبر فرضاً فنياً يزيد في فهم القارىء وضوح الفرق ، في تكافح الروح والجسد ، بين نزعتها العلوية السماوية ونزعته السفلية الأرضية . وهو أيضاً خيال أدخل في الصنيع البديع عنصراً مُخففاً من عناصر الملاحم : لأن إيجاد الخوارق فيها — بإدخال كائنات فائقة قوى الطبيعة في حوادثها — كان أمراً جوهرياً ، ثم أصبحت الخوارق مُحَسَّنا اختيارياً يراعى فيه احتمال الذوق العصري . وكأن هذا الخيال اتفاق أدبي مضمر بين الشاعر وقرائه ، كالاتفاق الروائي[1] الضمني في الروايات ، بين المؤلف والنظارة : كأنهم اتفقوا معه على التسليم بالفرض الأول في روايته ، ليضحكهم أو يبكيهم بما بنى عليه من مواقف ، وبما أنطق فيها أبطاله من كلام

واختار الشاعر من أسماء الأساطير الإغريقية أسماء لأبطاله ؛ وهو اختيار موفق لِما تشير إليه هذه الأسماء — بتداعي المعاني في ذهن القارىء — من أن القصص يصف غريزة الإنسان وأخلاقه من ماض بعيد ؛ ولأن أسماء أهل الفنون أليق بملحمة فيها كلام على الفنان وعلاقته بالمرأة . وفي اختيار تلك الأسماء القديمة مزية أخرى : فقد حسن وجودها في هذه الملحمة من حيث أن العتيق أشعر من الحديث ، كالسيف ما زال أحب في الشعر من المدفع . فما ظنك بمن لم يجد أسماء عربية تجمع مزايا تلك الأسماء الإغريقية ، وتحسُن حسنها إن حلت محلها في الملحمة ، فودّ لو أن الشاعر تبدّل بها أرقاماً في شعره ولم يضيّع دلالتها على شخصيات معروفة في الأساطير أو التاريخ !

وأنهم شاعرنا الغريزة في الأشباح ، ويرأ الأرواح المجردة . فالأرواح ذوات الأسماء الإغريقية تتكلم في العالم العلوي طليقة من قيود أشباحها ، تتكلم قبيل بعثها بما يصف سجايا الفنانين الآدميين وغرائز الإنسان ؛ وفي كلامها أنها حين تهبط في أشباحها إلى الأرض ، سيمروها ما عرا أرواح البشر :

لنا مثلهم في غد غشية إذا ما حللنا رحاب الثرى

(١) Convention théâtrale

كلمة إنصاف

كان المويلحي فيما يظهر مفطوراً على حاسّة العدل ، وهي حاسة تميل من الوجهة الشكلية إلى تجسيم العيوب ، وتغفُل أو تتغافل عن مكافأة من يُتهمون وهم أبرياء

أعظمُ ما يجازَى به المتهم البريء هو الحكم بأنه بريء ، ولم نسمع أن متهماً بريئاً جازاه قاضيه بجائزة تُذهب عنه آفاك المرجفين

لا رجاء في الدنيا ولا أمل في الناس ، إن لم يأت يوم يكون فيه حكم البراءة بشيراً بالرفاهية والرخاء

فأين المويلحي من هذه المعاني ؟

ظلمه معاصروه فظلم معاصريه ، والظلمُ بالظلم بنيّ وعدوان

كان المويلحي ابن زمانه ، فلم يهتد إلى فكرة العدل الصحيح ، ولو أنه عقل لأدرك أن المظلوم لا ينبغي له الوقوف في صفوف الظالمين

لو كان للمويلحي نصيب من الروحانية الصوفية لأدرك أن اضطراب المجتمع المصري عقوبةٌ فرضها التفريط الذي توارثته أجيال عن أجيال ، وعجز عن طيه الدهر والزمان

ونحن في مصر ، ومصرُ أمةٌ آذت وأوذيت ، وقاتلتْ وقوتلتْ ، فهي إلى الأبد في عراك وقتال وصيال

ليت المويلحي أدرك هذه المعاني ، وليته فهم أننا نجرجر تاريخاً له في ضمير الإنسانية جذور وجذوع وفروع

لو عَقَلَ المويلحي لقال في مصر كلاماً غير الذي قال ولكنه معذور ، لأن « العدل الرسمي » ساقه إلى أن يقول ما يقول

وفي الكلمة الآتية فصل القول في ذلك الأديب الفنان .

زكي مبارك

وإذا قال ناقد إن لتلك الأرواح أسماء تلازمها دلالاتها على شخصيات أصحابها المعينة فى الخرافات أو الأساطير أو فى التاريخ ، وإن الشاعر أهمل فى قصيدته هذه الدلالات — لأنه لم يدرس الأساطير الإغريقية كما يجب ولم يتفقه اليونانيات ، فإن هذا القول اللطيف ليس يمنع أنها أسماء أناس كانوا من البشر ، ما عدا هرميسَ (هِرْمَس) ، ولم يكونوا من أنصاف الآلهة ولا من الآلهة اليونانيين الذين خلقهم بشر ؛ ولا يمنع أن منطق هذه التحفة يقتضى ألا تظل أرواحهم فى السماء على حالها فى حياتهم الأرضية الغابرة من الانقياد الكلى للغريزة والشهوات الحسية .

ومع أن هذه الملحمة — في رأينا - إنسانية لا إغريقية ، فإن كلام أبطالها متصل بدلالة أسمائهم المعروفة . فهرميس الذى يقود الأرواح ، فى الأساطير ، يقود هنا روح الشاعر . وروح بليتيس ، البريئة فى السماء ، لا تكون بحالها يوم كانت حبيسة فى شبحها على الأرض ، أو بحالها يوم تبعث ؛ لكن تَنُم ذكريات من ماضيها الأرضى وماضى سافو فى مثل قولها :

حمت رقة الجنس رباته فليس بهـا حاجة للرجال
لكل اثنتين هوى واحد تَلاقى على سرّه مهجتان

وفى إجابة تايس :

حديثك إن لم يكن بدعة فحلم جرى فى قديم الزمان
وصيحة مخفقة فى الهوى معربدة الروح سكرى اللسان

أما غضب بليتيس وصاحبتيها من أن روح الشاعر مرّ أمامهن ورآهن فأعرض عنهن « ولم يحيّ السماء » ، فهو غضب ليس يُعَد من « كبرياء النساء » فى شىء ، والكبرياء عظمة وتجبر ، وإنما هذا الغضب ثورة على إهانة . وإن امرأة ما من أقل النساء عفة وأكثرهن استهتاراً واستسلاماً للشهوات ، وأنهما كانتا فى الملذات ، لتغضب من تغافل رجل عنها ؛ وقد تتظاهر بالإعراض عن رجل لتُوقعه فى شركها . وروح تايس ألهمتها الذكريات الأرضية اعتراضها على صاحبتيها اعتراضاً يشف عن حقيقة أمرهن جميعاً بقولها فى الرجال :

إذا خلت الأرض من طيرهم فمن ذا يحيي الجمال القسيم
ومن يطلق الحب من وكره على خطرات الفناء الرخيم

وفيمَ نرقّش هذا الجناح ونصقله ببنان النعيم

بقيت سافو (سفُّون) ؛ فهل كانت حسّية بالمعنى الشائع ؟ أليس فى مؤلفات الذين استوعبوا دراسة اليونانيات رأى آخر أو فى تحقيقاً ؟ بلى ، وهذه هى خلاصته :

إن سافو[1] اتُّهمت فى أخلاقها ، لكن يبدو أن أخلاقها كانت سليمة . ويجب أن نلاحظ أنها من قوم إيولين[2] ، كان نساؤهم كنساء الدوريين[3] أكثر حرية من نساء الإيونيين[4] الذين كانوا يحجرونهن فى الحريم : فإن هذه المغايرة تعلل ما لمؤلفى اللاهى الأثينيين من دعابات سيئة القصد ، وتعلل تلك الأقاويل المنحولة فى سيرة سافو . ويجب أيضاً ألا يغرب عن الخاطر أن الإغريق فى ذلك العهد ما كانوا وصلوا إلى معرفة التمييز فى الأدب بين الهوى الحسى والهوى العذرى ؛ ولكن لا صلة بين اللذة الحسية التى يصفها الشعر المنسوب خطأ إلى أناكريون[5] وبين لاعج الغرام الذى تعبّر عنه سافو فى القليل الموجود من شعرها

وبالنظر إلى هذا الرأى ، إن لم يكن بالنظر إلى أن الملحمة إنسانية لا إغريقية ، وأن أحوال أبطالها تختلف فى السماء عنها فى الأرض ، جاز لشاعرنا أن يجعل روح سافو فى السماء أهدأ منها فى تلك القصة المأثورة عنها ، ولا غرابة فى أن تقول :

رأيت الرجولة كل الجمال هو الرجل الفرد فى المزدحم
ويحدو العذارى إلى دارهن حيَّ الخطى موسوى القدم

---

(١) شعرها يقع بين ٦٣٠ و ٥٧٠ ق . م

(٢) Les Eoliens : الأيوليون هم سكان إيولى Eolie ، وهى قطر قديم من آسية الصغرى ، كان بين إقليم فى شماله، عاصمته طروادة Troie ، وبين إقليم فى الجنوب كان يبتدئ من خليج أزمير ويسمى إيونى Ionie وهؤلاء الايوليون قبيلة إغريقية طردها الدوريون من شبه جزيرة البلوبونيز Péloponnèse فاستوطنوا إيولى

(٣) Les Doriens : الدوريون هم سكان الدوريد La Doride ، وهى قطر قديم فى جنوب تساليا La Thessalie وقد فحوا البلوبونيز وأسسوا فيه إسبرطة

(٤) Les Ioniens : الأيونيون هم سكان إيونى الآنف ذكرها

(٥) Anacréon : شاعر إغريقى (٥٦٠ — ٤٧٨ ق . م) نسب إليه خطأ شعر غنائى قيل بعد عهده بزمن طويل وفيه مدح اللذة الحسية .

كلا ، إن الشاعر لم يهمل تلك الدلالات التي يغلو بإيجاب مراعاتها المغالون في الإعجاب بمبلغ دراستهم لليونانيات .

فأولئك حوريات في السماء غضبن على الشاعر فاتهمنه في غريزته وفنه . لكن هرميس إله البلاغة ومبتكر الفنون عطَّفهنَّ معتذراً عنه بأنه رآهن في قلبه ، وحيّا بقلبه وأطبق ناظريه على ما فيه ضنًّا بلألاء جمالهن . ودنا منهن روح الشاعر في شبحه قُبَيِّل بعثهن فأعجبن بالرجل : استلمت بليتيس صدره وجيبته مستجملة سائلة : أمِنْ حمأ الأرض هذا الجبين ؟ فأجاب هرميس : دعي طيفه وانظري روحه . فسألت متجاهلةً : هل الرجل الروح ؟ فأجابت تايس : إنه محيا وعينان ! فقالت سافو : ما في الرجال سوى كل أصيد سبط القوام :

ذراعاه تستدرجان الخصور وفي شفتيه حديث الغرام

فصاح هرميس مسيئاً بهن الظن : تنزهت عالي ! أينطق فيك روح بهذا الكلم ! لقد سبى السحر أجل أرواح السماء ! فقال صوت السماء : بل البعث آذنهن الغداة ، وهي الآدمية طافت بهن ، فلا تلحهن ولا تَلُمْ . وغضبُ الحوريات حيلة من ناظم اللحمة جعلتهن يُظهرن شرفهن أو سموهن الروحاني ، وينعين على الفنان غريزته وأثرها في فنه أو انحطاطه الجسدي ؛ وهي حيلة أثبتت مهارة الشاعر الفنية ، ولا سيما أنه نجح بها أولاً في شغلهن بمحاورة وصفت ما أراد . شغلهن حديث الفن في السماء ، وكان الفن يشغلهن في حياتهن الأرضية . وغضبن على الفنان الرجل ، لكن ما لبثن أن رضين عنه وتهافتن عليه في نزعةٍ إلى الحسيات ، فلم تضع الصلة بينهن وبين تلك الدلالات العزيزة ، وبدا طبعهن في حالي السخط والرضى ، وأثرها واحد في كل البشر وإن اختلفت درجاته ، فهو لا يضر وحدة الشخصية في ذوات الأسماء الإغريقية ، لأنهن في الحقيقة يمثلن النساء لا الملائكة

وعندنا أن الشاعر لم يتخذ من الأساطير مادة شعره ، وإن اختار منها أسماء ، وإنما نحت شعره كله من صميم الحياة الإنسانية بالروح والجسد والغريزة جميعاً على ما يتبيّن في صنيعه ، فلم يكن عليه أن يتقيّد بدلالة تلك الأسماء

وتقرير هذه الحقيقة ، بعد ما تقدم ذكره هنا وفي المقالة السابقة ، تقرير واجب ، إذ ليس يجوز التساهل في فهم المادة التي صدر عنها خيال الشاعر

ما القول إذن في البيانات النثرية الوجيزة الواردة قبل القصيدة عن أصحاب تلك الأسماء ؟

الجواب قريب : فهي في نظرنا بيانات تذكر بأنهم كانوا من أهل الفنون ، ليكون كلام أرواحهم في الفن وأهله ، والقلب وشأنه ، والإنسان وغرائزه وخلاله ، أحسن وقعاً في النفس . وجمالك أيها القارئ الكريم ألا تخدع نفسك بهذه البيانات . أما الذين يتبحرون في العلم بالأساطير واليونانيات فقد يأخذهم الوجد بها حتى يُصبح مجيراهم التشبث بدلالة تلك الأسماء كلما صادفتهم في أدب أيا كان وجهه

والبيانات النثرية الأخرى أيضاً تُذكر بمضمونها لكي يسهل فهم الإشارة في اللحمة إلى الساحرة وموسى ، وماما وهاواي ، وغير ذلك ؛ وذكر آدم وحواء في القصيدة فيه كذلك إشارة ضمنية إلى براءة الروح لبراءتهما قبل الخطيئة في الجنَّة ، وهو رمز إلى الرجل والمرأة وخطاياهما في كفاح الأرواح والأشباح البشرية ، ولم يُذكرا لإيراد قصتهما المعروفة الحبيسة في المعتقدات الدينية

(البقية في العدد القادم) محمد فريد أبو حديد

للشاعر علي محمود طه

أرواح وأشباح

ملحمة رائعة من شعر الأساطير

حوار الجسد والروح ، حديث الفن والحب

بين المرأة والرجل

لون جديد في الشعر العربي الحديث

أتقن ما أخرجه فن الطباعة

ورق برستول النادر في حجم كبير فاخر

صور رمزية وغلاف مصور بالألوان

لم يبق من هذا الديوان غير نسخ معدودة

يطلب من جميع المكتبات في مصر والشرق العربي

ثمن النسخة ٢٥ قرشاً عدا مصاريف البريد